مكتبي في وكالة الغوث ، وفجأة أجدني واقفا فوق اكياس الطحين، وباب المخزن مشقوق شقا رفيعا يدخل منه شعاع الشمس مثل نصل سكين ، وعبر هذا الشق ارى اكوام اللاجئين تغلي على امتداد البصر ، وأشرع وسط طنين لا مثيل له بالقاء خطاب ، ويختلط الامر فاذا بي انظر من شق الباب الى زينة واقفة هناك تخطب وانا احـــاول أن افهم صوتها الغاضب ، الا انها تنزل بين ذراعي مصطفى ، واعود فاخطب وقد استبد بي غضب يملأه الالم ، وتتحرك الجموع وتحطم باب المخزن ، وفجأة تمتلىء اذناي بأصوات ضجيج لا قبل لي باحتمالها ، وارى عبد العاطي وسط السيل يتدافع بالاكتاف ، وأصحو .

وكنت أعرف ان الذهاب الى مكتبي في الوكالة ، صباح اليوم التالي ، سيكون مؤلما ، وان شيئا ما قد حدث في حياتي ، لا أستطيع تبينه على وجه الدقة . لقد حطمت شيئا وليس لدي ما أستعيض به . كنت أعرف انني لن أطيق ، بعد ، العمل في المكان الذي وضعوني فيه عشرين سنة ، ولكنني لم أكن لاعرف اين يتعين علي أن أتجه . ليست الحياة الا سلسلة تأخذ فيها الحلقة بيد الحلقة ، فاذا اكتشفت وليا أدخلت العالم تحت جبته ، واذا قتلته أخرجت العالم كله من هناك ، ولكن الى أين ؟

واخذت أتذكر الشيخ حسنين ، أمام الجامع في طيرة حيفا ، فقد كان جارنا ، وظل يشدد علي وعلى أبي حتى صرت اذهب الى الجامع ، ولكنني كنت أخفق في سماع خطاباته كل يوم جمعة، وذات يوم قلت له وهو يأخذ بيدي خارج المسجد : « لو كان يريدني أن أسمع خطبتك لأعطاني اذنين » ولفرط دهشتي ضحك الشيخ حسنين ضحكا شديدا ، وصار يتراخى في تشديده علي حتى تركت تقريبا عادة الذهاب الى المسجد ، ولكنني صرت أكثر اعتمادا على ابي ، وقد لاحظ الجميع ذلك الى حد كان يبعث في الالم ، وقد انضم الشيخ حسنين الى المجاهدين في الطيرة ، وكان منظر عمامته فوق البدلة الكاكية طريفا ، وبدت البندقية على كتفه وكأنها خدعة دينية ، لا اكثر . ولكنه في الحقيقة كان مقاتلا من الدرجة الاولى ، وكان دوره مهما الى أن استشهد ذات ليل ، واخفق الرجال في العثور على جثته من فرط ما كان متقدما على خطوط البلدة .

تذكرت الشيخ حسنين لانه عندما مات شعرت تقريبا بما أشعر به الآن . ذلك الفراغ المزوع الذي يضعك على عتبة قرار جبان ، وقد فعلت ، اذ انني أخذت منذ ذلك الوقت انتظر المعجزة ، وحتى عندما وقعت الواقعة كنت أشعر في أعماقي بأن معجزة ما قد أنقذتني . وقد حدث الامر كله في لحظة صغيرة لا تكاد ذاكرتي تحصرها : يبدو انني لم أسمع أصوات الانفجارات ونحن نجلس أمام بيتنا في الطيرة ذلك المساء ، واندفع والدي وشقيقي وأمي عبر الطريق الى حيث يقوم الملجأ المرتجل ، وسقطت عليهم القنبلة وهم في منتصف المسافة ، اما أنا فكنت ما أزال جالسا في مكاني ، وانقذني الصمم ، وقلت لنفسي سنة وراء الاخرى ان المعجزة قد وقعت ، وأنني أدين بحياتي لعلة طالما شكوت منهـــا .

الآن ، لا فرار . لعل وجود عبد العاطي قد دفع القرار الى نهايته ، فتمزق كل شيء دفعة واحدة ، وليس ثمة الآن الا ذلك المفترق بين طريق الحياة وطريق الموت ، ذلك المفترق الذي تميزه فجأة ، والذي تكتشف انك أمضيت عمرك تراوح أمامه دون ان تتخذ قرارك ، ليس لانك لا تريد ، ولكن لانك غافل عن ضرورة ذلك .

القرار . القرار . القرار . ماذا أستطيع انا وعبد العاطي أن نفعل في وجه هذا العالم ؟ هل بقي لدينا ، بعد ، متسع من الوقت لنفعل شيئا ؟ أم تراه بقي متسع من الوقت لكي نعود فنمزق صفحة عبد العاطي الولي من حياتنا وننساها ونعود الى أمكنتنـــا وكأن الزلزال لم يقع ؟

ولكن قدمي ساقتاني ، دون أن أعي ، الى مكتبي في وكالة الغوث . دخلت وسلمت